

## خطاب الأستاذ الدكتور مختار هاشم في حفل استقباله

سيدي نائب رئيس المجمع  
سادتي أعضاء المجمع  
أيها السيدات والسادة

لم أتوقع فيما غير من أيامي أن يأتي يومٌ أقف فيه موقفِي هذا لا استقبل عضواً عاملاً في هذا الصرح الشاخر من صروح أمتنا المجيدة ولأن يكون استقبالي في هذه القاعة التاريخية التي تحمل اسم مؤسس المجمع الأستاذ محمد كرد علي، في هذه القاعة التي كنت قصدتها يافعاً لأول مرة بغية الاستماع إلى محاضرة للشيخ عبد القادر المغربي عنونها (الشعوبية)، كان استاذنا خليل مردم بك<sup>(١)</sup> قد أشار علينا بحضورها والاقتراب من مادتها في كتابة وظيفة الانشاء.

وهذه ساعةٌ من ساعات العمر التي تلتبس فيها المشاعر وتصطرع فيها الأفكار ولم أعتد تنميق الكلام وتزوير العبارات فلا غرو إذا عُميت عليّ وجوه الكلام، ولكن لا بدّ أولاً من شكر السادة الزملاء على ثقة منحوني إيّاهم قد أكون غير جدير بها ولكن ثقتي باستقامتهم واخلاصهم لرسالة المجمع تميل بي إلى تصديقهم والاعتزاز بهذه الثقة. وخصص بالشكر الدكتور شاكر الفحام نائب رئيس المجمع، الذي عقد هذه الجلسة العلنية ودعا إليها زمرة مختارة من أصدقاء العلم والأدب، وتولّى شؤون انعقادها بنفسه شخصياً، ولم يله عن

(١) مازالت صورة هذا الأستاذ العظيم تلوح لخيالي حتى ذكرته في قصيدة (ذكرات المدرسة).

ذلك ما حاز من مجد عظيم بنيله جائزة الملك فيصل العالمية للأدب العربي لهذا العام. كما اخصّ بالشكر. الدكتور عدنان الخطيب الذي تطوَّع بالتنويه باسمي فاتعب نفسه بالتفتيح عن حسناتي القليلة، وكذلك الكريمُ: يرتاح للعطاء ويجد في التعب لذة ورضى. وانني مازرت المجمع يوماً إلا انست بمجلسه فهو أمينه الوفي بعهده.

ثم أقول: انني إذا لم اطمح يوماً إلى التشرف بزمالكتم فقد كنت تواقاً إلى حضور مجالسكم والاستماع إلى طيب أحاديثكم، إلا انني كنت منهمكاً في شؤون معاشي منصرفاً إلى خدمة مرضاي، ولكن وجه العربية المضريه ظل يداعب خيالي وحبها يعصف بجوانحي فما وجدت فراغاً إلا ملأته بمناجاتها ولا لآح لي درب إلا سلكته في اقتفاء آثارها حتى أذن الله لي بزيارة دارها، وكان ذلك قبل ثماني سنوات أو أكثر حين التقيت استاذي الدكتور حسني سبوح رحمه الله، رئيس مجمع اللغة العربية وبادلته الحديث في احياء التراث العلمي، وحين ودّعت دعاني لزيارته في مجمع اللغة لاتمام الحديث، وتمت الزيارة وتكررت وعاد الاتصال باعضاء المجمع وموظفيه المخلصين، وانجزت مايسر الله لي من خدمة لغة القرآن. ولما عرض عليّ سدنة المجمع مشاركتهم في حمل الأمانة الثقيلة لم اتمالك عن الاستجابة لامرهم، لأن حبّ العربية قد استخفني، والزهو بها استجهلني، فأرجو من الله العليّ القدير أن يشدّ أزرّي وأن لا يجعلني من الظالمين<sup>(٢)</sup>، وان يوقني لأكون من الناصحين.

فنصحي لكم قاد الهوى من بلاده إلى منبت الزيتون من منبت النخل  
من الله علينا بقطرات من زيت هذه الشجرة المباركة التي ﴿يكاد زيتها  
يضىء ولو لم تمسه نار﴾<sup>(٣)</sup>.

وبعد، لما كان من تقاليد المجمع وصلّ الحاضر بالماضي، فاني أتشرف

(٢) إشارة إلى سورة الاحزاب : ٧٢ .

(٣) سورة النور : ٣٥ .

باحياء ذكرى الأستاذ العظيم محمد المبارك الذي خلفته في عضوية الجمع، وإذا كان الحظ لم يسعدني بأن أكون على صلة شخصية به، فقد أتاح لي شرف لقائه في محاضرة ألقاها عام ١٩٤١ في نادي الكشاف السوري الذي كان في ذلك الوقت مثابة فريق من الشباب المؤمنين بعروبتهم. كان عنوان المحاضرة (أثر صاحب الرسالة في وحدة العرب وتوسّعهم)<sup>(٤)</sup> وقد افتتحها بقوله (اننا نعجب اليوم كيف كانت ذكرى الرسول العربي— وهي ذكرى ثورة وحياة وإيمان— بعيدة كل البعد عن أن تثير فينا شيئاً من روح محمد ﷺ القوية ومن تعاليم رسالته، تلك الرسالة التي لا تقبل ظلم الظالمين واستغلال المستغلين وبغبي المستبدين ثم يأخذ في تعريف الوحدة والتوسع (فالوحدة شعور جماعة من الناس بانها تؤلف جسماً حياً واحداً يعمل جميع أفرادها أعمالاً منسجمة، تؤدي إلى تحقيق غاية واحدة، فإذا حصلت هذه الوحدة حصلت وتولدت جميع مظاهر الوحدة من سياسية واجتماعية وفكرية، وكانت نتائج طبيعية لها، وألف أولئك الأفراد شيئاً جديداً يسمى أمة، تتميز من غيرها كما تتميز الأجسام الحية بخصائصها، هذه هي مرحلة الوحدة في تطوّر الأمة، وتلي هذه المرحلة مرحلة التوسع الحيوي. وهي مرحلة تشعر فيها الأمة بقوتها وتؤمن بظفرها ونجاحها، وإذا كانت روح الأمة قوية تمثلت البشرية جميعاً في نفسها وأصبح جسمها على حال من القوة والسلامة تمكنه من تمثّل العناصر الأخرى تمثلاً حقيقياً، ليست القوة وحدها هي الأساس فيه، وأصبحت مشرّعة لنفسها ولغيرها).

وعند الكلام عن العرب قبل الاسلام يقول: (إذا أطلّ المؤرخ من شرفته على الزمن ورجع القرون القهقرى وجد أن العرب من أقدم الأمم التي عُرفت وأقواها. فإننا إذا ألقينا نظرة شاملة على تاريخهم وجدنا ان العرب أسسوا مدنات قديمة متعاقبة، تبتدئ بما ظهر في ما بين النهرين ثم تتلوها مدنات في اليمن وفي البتراء والأردن وتدمر والحيرة والشام، ولكن لم تكن قد نشأت بعد وحدة عامة

(٤) نشرها في كتاب الأمة العربية في معركة تحقيق الذات.

تشعرهم شعوراً واضحاً قوياً بانهم أمة واحدة ولا ظهر بعد الشعور المشترك العام الذي يشملهم جميعاً) .  
ويقول أخيراً:

(وهنا نقف باجلال أمام هذه المعجزة الإلهية التي قضى الله أن يجعلها في تاريخ العرب ، أمام تلك الرسالة التي شرفهم الله بها . ولأنشك ان الله قدّر أن يكون النبي منحدرًا من أشرف الآباء ، وقدّر كذلك في احكام غيبه أن يكون العرب من أشرف الأمم وأظهرها ليجعل منهم حملة دينه وقرآنه ﴿ إنا جعلناه قرآنا عربياً غير ذي عوج ﴾ .....)

إن في فهم العرب رسالتهم عامة خالدة موضوعة في دستور تريد ان تشعه لجميع الناس لدليلا على ان العرب قدّر لهم أن يصلوا إلى أعلى ما يمكن أن تصل إليه أمة من الأمم في الحياة .

عمدت إلى تلخيص هذه الحاضرة لأنها معلّم على طريق التفكير القومي من جهة والاسلامي من جهة أخرى التقى عنده التفكيران وكان كلٌّ منهما يسير على حدة . إنها تعبّر عن مفهوم جديد يأخذ القومية مأخذ الاعتبار ولم يكن لها مكان في التفكير الاسلامي في عهد الخلافة العثمانية فقد كان الايمان بالقومية يبدو نقيض الايمان بالدين<sup>(٥)</sup> ولا يمكن فهم هذه المشكلة إلا بالرجوع إلى تاريخها<sup>(٦)</sup> والامعان في فهم تاريخ الاصلاح الاسلامي<sup>(٧)</sup> وقد ظهر للفيلسوف المسلم التركي رضا توفيق في مجلة الثقافة (دمشق ٥ أيار ١٩٣٣) مقال<sup>(٨)</sup> بعنوان (المدنية والثقافة والاصلاح) اقتطف منه فقرات تتصل بهذا الموضوع:

(٥) انظر مجلة المجمع العلمي مجلد ٣٥ ص ٦٧١ .

(٦) انظر المسألة الشرقية في ادوارها المختلفة وظهور محمد علي الكبير في (تاريخ القرن التاسع عشر في أوروبا) لمحمد قاسم وحسين حسني .

(٧) انظر (أم القرى) لعبد الرحمن الكواكبي .

(٨) ترجم المقال الدكتور جميل صليبا .

(الثقافة هي إذن بهذا المعنى صورة شخصية وطابع جنسي، لا بل هي قوة حيوية تصان بها عبقرية الشعب ووحدة). .

(فللعرب مزايا شخصية ناشئة عن ثقافتهم. وكما تجعل المزايا الجنسية ملامح العربي مختلفة عن صورة الآخرين فكذلك يولد المزايا الجنسي والاستعداد الطبيعي صورة شخصية من الثقافة مختلفة عن غيرها. ولولا صفات العربي الجنسية وثقافته وأخلاقه التالدة ولغته المهذبة وجمال أدبه وروعة تاريخه المجيد، لما استطاع أن يحافظ على شخصيته الجنسية بالرغم من تقلبات الزمان وطوارئ الحدثان. بل مما هو جدير بالاعجاب ان العربي استطاع أن يتغلب بثقافته ودينه على جميع الأمم الحربية التي غلبته بالسيف والقوة الغاشمة .

بعد هذا التمهيد أشرع في ترجمة الأستاذ محمد المبارك :

ولد سنة ١٩١٢ للميلاد في دار ملاصقة للمدرسة العادية الحقت فيما بعد بمقر الجامع العلمي العربي بدمشق. سمّاه أبوه عبد القادر المبارك محمداً وكنّاه منذ صغره بابي هاشم أما أسرته فيطيب لي أن انقل ما ذكره في مقدمة كتابه (الامة العربية في تحقيق الذات) حيث قال (استمر تفكيري في هذا الموضوع، واعانني على ذلك دافع داخلي، تكوّن مما لقّني إياه أبي رحمه الله منذ كنت يافعاً، من اننا هاجرنا من الحجاز فيمن هاجر من أبناء الحسن بن علي، وأقمنا في شتى أنحاء المغرب إلى أن استقر بنا المطاف في الجزائر، ثم غادرناها مع عدد كبير من سكانها بعد دخول الفرنسيين إليها عقب حربٍ دامت بضعة عشرة سنة، إلى بلد العروبة والاسلام دمشق حيث استقر بنا المقام منذ قرن وربع وطالما كنت اقلب صفحات الرسائل المتبادلة بين جدّي ومن بقي من أسرته في الجزائر، وبينه وبين اخيه الذي هاجر بعد ذلك إلى اليمن، وأتأمل فيما في تلك الرسائل من أخبار هجرتنا وأجدادنا. لقد بقي كل ذلك كامناً في النفس ولكنه كان يدفعني من حيث أشعر ولا أشعر إلى البحث والتفكير في كثير من الموضوعات دفعاً شديداً، ويحتملي ألواناً من العواطف والمشاعر).

هذه هجرة أسرة المبارك، بين تغريب وتشريق، وانحجرة قدر كثير من

الأسر والقبائل العربية، ولكن عدم الاستقرار هذا في المكان يقابله استمرارٌ عجيب في الزمان، حتى ان سيرة محمد المبارك لا تتجلى لك إلا بالعودة إلى سيرة أبيه وجدّه، لذلك أقول:

إن محمد المبارك من دوحة برك الله لدمشق برجالها أولهم جدّه الشيخ محمد المبارك الكبير الحسني<sup>(٩)</sup> نشأ في عصر كان علماءؤه لا يُعنون إلا بالنحو والصرف والفقّه والحديث والتصوف فبرّز بينهم، وكان أول من أحيا قراءة مقامات الحريري، شرّح عشر مقامات منها<sup>(١٠)</sup> فانتفعوا بها وحبّهم بلغتهم العربية في دولة كان موظفوها يتفخرون بالتراطن بالتركية ولفت انظار شيوخ الدين إلى كتب اللغة العربية التي لا يُفهم كتاب الله وسنة رسوله إلا بدراستها والوقوف على أسرارها وكان من ولعه بالعربية واهتمامه بنشرها بين أبنائه أنه بعد طبع لسان العرب دخل منه دمشق نسختان فاشترى احدهما وأهداها لابنه وخليفته في اللغة والأدب الشيخ عبد القادر المبارك واهدى إليه معها تاج العروس.

وللشيخ محمد من الآثار الأدبية: نضرة البهار في محاوره الليل والنهار، بهجة الرائح والغادي في محاسن الوادي، مقامة في المفاخرة بين الغربية والاقامة.

وترك لورثة علمه وأدبه خزانة كتب طيبة في اللغة والنحو والفقّه والتصوف ومنها كتاب الحسبة لابن تيمية الذي كان يجاربه الحشويون المقلدون.

وبفضل رعاية الوالد لولده وما كان يُقيسه إياه من دروس العلم والأدب نشأ الشيخ عبد القادر المبارك مفتوناً باللغة وآدابها وما زال يستضيء بمشكاة والده حتى أصبح عالماً من أعلام اللغة فاهتم بتدريسها والتأليف فيها فشرح المقصورة الذريديّة واعان في تحقيق المخطوطات النفيسة كسيرة ابن سيّد الناس فقد كان من علماء السيرة وقلما يجاربه أحد من شيوخ البلد في هذا العلم.

ومن ذكرياتي في الكلية العلمية الوطنية عندما كنت طالباً فيها: أن رفيقاً

(٩) انظر: المعاصرون لمحمد كرد علي ترجمة ٣٩.

(١٠) طبعها بعنوان (المقامات العشر لطلبة العصر).

لنا في المدرسة نقل من رفيق له في (مكتب عنبر) القصيدة القافية (احدى  
العبر بين البشر أو أنشودة الألباب في عالم الأسباب) من نظم استاذ اللغة  
عبد القادر المبارك

لم ياتيب الجّد هيبَ الرّاقى      ألحّسن منظر ثوبه البرّاق  
لَمْ سادك الرّاقى سيادة قاهر      طَبَّ بما تليفه غير مُطّاق

وفي القصيدة بيت أثار استغرابنا وجعلنا نحفظ المثل القائل: مخربقُ لينباع  
فاخرنبقوا دهرأ يريشون التي      طاروا بها من بعد الاخرنباق

يذكر محمد المبارك مدى علاقته بأبيه قائلاً<sup>(١١)</sup>: (ألفيتُ في الاقبال على  
الأبحاث اللغوية احياء لميل قديم موروث وحفظاً لجهد كنت بذلته في هذا  
السيبل، فطالما قضيت الساعات الطوال مع والدي رحمه الله في شرح المعلقات  
أو لامية العرب للشنفرى أو المقصورة الدرديدية أو مقامات الحريري أو أمثالها من  
آثار لغتنا. وقد طفقت منذ كنت ناشئاً أعبّ من معين روايته الواسعة وأنهل من  
ينبوع لغته العذبة في جلسات خاصة أو مع زملائي في تجهيز دمشق أي  
مدرستها الثانوية أو في مدرسة الأدب العليا لكلية الآداب. إلى أن يقول: ولم  
يكن شأنه مع اللغة العربية شأن عالم يدرسها أو يعلمها ولكنه كان معها في  
حالة وجدانية نفسية يعيش مع شعرائها الأولين ورواتها السابقين).

قوله: ميل قديم موروث يستحق النظر فكأنه يعتقد بوراثة بيولوجية  
وانني أراه أثرا من آثار الجوّ الذي تنسّم هواءه والكنف الذي نشأ في حماه، أما  
كان هو القائل<sup>(١٢)</sup>: لقد أتيح لي أن أعيش في حدائتي منذ ثلاثين سنة في  
ذلك الجوّ المجمعى فقد كان والدي رحمه الله عضواً عاملاً في المجمع منذ أوائل  
انشائه، فكنت أصحبه في بعض تلك الندوات الخاصة بالأعضاء، وسمع منه

(١١) مقدمة فقه اللغة لمحمد المبارك صفحة ج وفيه تقرأ النصّ كاملاً.

(١٢) كلمة الأستاذ محمد المبارك في حفل استقباله في مجمع اللغة العربية بدمشق.

حكاية ما يدور بينهم من مناقشات وأبحاث ، واتلقى مفتبطاً اعداد المجلة قارئاً أو متصفحاً... إلخ .

### نشأته

وفي كنف هذا الوالد المسلم العالم نشأ محمد المبارك فدرس العربية وعلومها على أبيه كما درس العلوم الدينية على المحدث الأكبر الشيخ بدر الدين الحسيني الذي كان متفرداً في عبادته وتقواه بل درس عليه العلوم الدينية من حساب وهندسة وحكمة طبيعية كما عُرفت عند العلماء الأقدمين ولازمه حتى توفاه الله سنة ١٩٣٥ م فبكى عليه بكاء مرّاً. أنهى دراسته الثانوية بتفوق ملحوظ وحصل على البكالوريا الثانوية - قسم الرياضيات - ثم قدّم أوراقه لدخول كلية الهندسة في بيروت إلا انه عدل عن رؤية فدرس الحقوق وتخرّج سنة ١٩٣٥ م. وعمل فترة قصيرة في مكتب المحامي أسعد المحاسني ثم أوفد للدراسة في باريس فدرس الأدب العربي في السنة الأولى والأدب الفرنسي في السنة الثانية فحصل على الاجازة في الآداب سنة ١٩٣٧ م ثم حصل على دبلوم علم الاخلاق والاجتماع في السنة التالية. أفاد من دراسته في فرنسا افادة كبيرة بالاطلاع على أصول الثقافة الغربية فقد كان اساتذته في قسم علم الاجتماع من تلاميذ (دوركهايم) Durkheim الذي حاول تأسيس علم اجتماع مستقل في موضوعه وطريقته تحقيقاً للهدف الذي رمى إليه أوغست كونت Auguste Comte لا جرم ان هذا الاتجاه قد اصطدم بالاتجاه الاسلامي الذي نشأ عليه فحاول العثور على صيغة جديدة يرتاح إليها .

ثم رجع إلى دمشق فعمل مدرساً للغة العربية في المدارس الثانوية في حلب سنة ١٩٣٨ م وبعد سنتين انتقل إلى دمشق فدرس اللغة العربية في ثانويتها الكبرى (التجهيز) وفي دار المعلمين . وفي عام ١٩٤٥ م، عينه المشرف العام على وزارة المعارف الاستاذ ساطع الحصري مفتشاً عاماً على سورية لمادتي اللغة العربية والدين (بل واللغة الفرنسية أحياناً) فوضع مناهج هاتين المادتين لجميع سنوات التعليم الثانوي بأسلوب علمي جديد .



## نشاطه السياسي

في عام ١٩٤٧ استقال من وظيفته في وزارة التربية ليتمكن من ترشيح نفسه للانتخابات ففاز فيها ودخل مجلس النواب نائباً عن مدينة دمشق كما شغل منصب وزير الأشغال العامة والمواصلات سنة ١٩٤٩ - ١٩٥٠ م ثم منصب وزير الزراعة سنة ١٩٥١ .

وبعد سقوط الشيشكلي انتخب مجلس نيابي جديد فرشح نفسه نائباً مستقلاً عن مدينة دمشق ونجح في الانتخابات واستمر نائباً حتى عام ١٩٥٩ حين قامت الوحدة بين مصر وسورية فانصرف إلى العمل العلمي ولم يشارك منذ ذلك الحين في العمل السياسي .

## عمله في التدريس الجامعي

لم يحل النشاط السياسي عن استمراره في التدريس فقد درّس سنة ١٩٤٨ مادة فقه اللغة ثم الدراسات القرآنية في قسم اللغة العربية في كلية الآداب بجامعة دمشق . وعندما أسست كلية الشريعة بمجهود العالم المفكر مصطفى السباعي رحمه الله في عام ١٩٥٤ - ١٩٥٥ الدراسي ، شارك في وضع خطتها ومناهجها واقترح لأول مرة تدريس مادة (نظام الاسلام) ومادة (حاضر العالم الاسلامي) وعيّن فيها استاذاً بكرسي أولاً ثم أسندت إليه عمادتها منذ عام ١٩٥٨ .

وفي عام ١٩٦٦ انتدب من جامعة دمشق إلى جامعة أم درمان الاسلامية في السودان ليشتغل منصب استاذ ورئيس قسم الدراسات الاسلامية . ثم عيّن استاذاً محاضراً في جامعة الخرطوم في كلية الحقوق (قسم الشريعة) منذ عام ١٩٦٧ وقد أحب السودان واحبه أهلها لوعيه الاسلامي ونشاطه المستمر .

وفي عام ١٩٦٩ اقترح عليه وزير المعارف في المملكة العربية السعودية العمل فيها فرحب بالاقتراح واختار مكة المكرمة فعيّن استاذاً ورئيساً لقسم الشريعة والدراسات الاسلامية في كلية الشريعة بمكة المكرمة ، وشارك في وضع

مناهجها وخططها، كما كان عضواً للمجلس الاستشاري الأعلى للجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة.

ثم أصبح مستشاراً واستاذاً باحثاً في جامعة الملك عبد العزيز بجده سنة ١٩٧٣ وفي عام ١٩٧٨ م انتدبته جامعة الملك عبد العزيز بجده للتدريس في الجامعة الأردنية ليعمل فيها استاذاً للثقافة الإسلامية وعلم الاجتماع بالفصل الدراسي الثاني من كل عام، واستمر في هذا العمل إلى حين وفاته.

### مشاركاته

كان عضواً في لجنة الثانويات الشرعية في سورية سنة ١٩٤٢ م كما شارك في عام ١٩٥٤ م في وضع مناهج ومخططات كلية الشريعة بدمشق.

وفي عام ١٩٦٠ م، اختاره مجلس جامعة دمشق ممثلاً لها في المجلس الأعلى للتخطيط الجامعي للجمهورية العربية المتحدة في القاهرة، ثم كان عضواً في لجنة التخطيط في جامعة الأزهر.

وفي عام ١٩٦٤ م، شارك في وضع خطة لكلية الشريعة في مكة المكرمة، ولكلية التربية من جهة الثقافة الإسلامية، وكان أول من اقترح جمع الكليتين وتسميتهما بجامعة أم القرى. وفي صيف عام ١٩٦٦ م، اشترك في وضع خطط الكليات في جامعة أم درمان الإسلامية، وفي عام ١٩٧١ م، دُعي للمشاركة في وضع خطة للدراسة في معهد القضاء العالي في الرياض.

كما شارك في أكثر المؤتمرات الإسلامية التي عقدت في العالم الغربي والإسلامي في كراتشي، ولاحور، ودمشق، ومكة المكرمة، ومقديشو، والقدس، وطرابلس الغرب، والجزائر، والمغرب، والأردن، واندونيسيا، وفرنسا، وإيطاليا.

كما كان عضواً في المجمع العلمي العربي بدمشق والقاهرة وبغداد.

كما شارك في اللقاءات الإسلامية المسيحية، وأشهرها اللقاء الذي مثله

وفد كبير من العلماء والمفكرين من المملكة العربية السعودية في دولة الفاتيكان ثم في باريس واسبانيا وذلك سنة ١٩٧٤ م.

اتصل بعدد من المفكرين الغربيين الذين انصفوا الاسلام واعترفوا بفضله على الحضارة الانسانية مثل (زيغريد هونكه) المستشرقة الألمانية، وموريس بوكاي، وروجيه غارودي الفرنسيين.

### وفاته

كان كعادته... رحمه الله... يقصد المدينة للزيارة فقصدها مع زوجته وابنته يوم الاثنين ١٤٠٢/٢/٤ وفي صبيحة يوم الخميس ١٤٠٢/٢/٧ هـ الموافق ١٩٨١/٢/٣ م أدركته الوفاة بالسكتة القلبية، وهو في طريقه إلى الطبيب مع أحد أخوانه وبعد وقت قصير من عبارة قالها وهو يمر من أمام مقبرة البقيع: (هنيئاً لمن يُدفن في البقيع) يرحمك الله يا أبا هاشم، كأني بك صدقت الله وعده، فاختارك في هذه الأرض الطيبة.

### آثاره ومؤلفاته

خلف لنا مجموعة من الكتب والرسائل النافعة هي:

- ١ — فن القصص في كتاب البخلاء للجاحظ طبع سنة ١٩٤٠ م.
- ٢ — رسالة في عبقرية اللغة العربية طبع ١٩٥٦ م.
- ٣ — نظرة الاسلام العامة إلى الوجود وأثرها في الحضارة ١٩٥٨ م.
- ٤ — القرآن عربي الخطاب انساني الرسالة ١٩٥٩ م.
- ٥ — من منهل الأدب الخالد (دراسة تحليلية أدبية لنصوص من القرآن) ١٩٥٩ م.
- ٦ — رسالة في عبقرية اللغة العربية.
- ٧ — فقه اللغة ١٩٦٠ م.
- ٨ — خصائص العربية ومنهجها الأصيل في التجديد والتوليد ١٩٦٠ م.
- ٩ — الامة العربية في معركة تحقيق الذات الطبعة الأولى ١٩٥٩ م.

- ١٠ — سلسلة نظام الاسلام صدر منها: العقيدة والعبادة، الاقتصاد، الحكم والدولة.
- ١١ — المجتمع الاسلامي المعاصر.
- ١٢ — الفكر الاسلامي في مواجهة الأفكار الغربية ١٩٦٩ م.
- ١٣ — نحو انسانية سعيدة.
- ١٤ — العقيدة في القرآن الكريم.
- ١٥ — ذاتية الاسلام أمام المذاهب والعقائد — المحاضرات العامة خلال عام ١٩٦١ — ١٩٦٢ جامعة دمشق.
- ١٦ — نحو وعي اسلامي جديد (محاضرة ألقاها في الأزهر).
- ١٧ — المشكلة الثقافية في العالم.
- ١٨ — مذكرات في الثقافة الإسلامية.
- ١٩ — الاسلام والفكر العلمي.
- ٢٠ — بين الثقافتين الغربية والاسلامية.
- ٢١ — الدولة ونظام الحسبة عند ابن تيمية (بحث قدمه إلى اسبوع الفقه الاسلامي).

هذا ما عدا عدداً من المقالات في كثير من المجلات الاسلامية العلمية، وكان آخر مقال له في مجلة الأمة<sup>(١٣)</sup> الصادرة من دولة قطر بعنوان (موضوع الأمة بين النظريات الاجتماعية والتصور الاسلامي).

### إطلالة على معالم فكره

لما كان اهتمامه الفكري يدور حول ثلاثة محاور اللغة العربية والقومية العربية والاسلام فإني اقتطف نبذاً من أقواله أو أشير إلى بعض أفكاره في هذه الموضوعات الثلاثة.

(١٣) الأمة السنة الثانية — العدد الأول ١٠ — ١ — ١٤٠٢ هـ.

## ١ - اللغة العربية (١٤)

١ - يقول المبارك في اللغة : ( للغة قيمة جوهرية كبرى في حياة كل أمة فانها الأداة التي تحمل الأفكار وتنقل المفاهيم فتقيم بذلك روابط الاتصال بين أبناء الأمة الواحدة ، وبها يتم التقارب والتشابه والانسجام بينهم . ان القوالب اللغوية التي توضع فيها الأفكار ، والصور الكلامية التي تصاغ فيها المشاعر والعواطف لا تنفصل مطلقاً عن مضمونها الفكري والعاطفي . أضف إلى ذلك ان الأمة العربية أمة بيان والعمل فيها مقترن دوماً بالتعبير والقول ، فللغة في حياتها شأن كبير وقيمة أعظم من قيمتها في حياة أي أمة من الأمم ) .

٢ - كان من أثر الاصطدام بالحضارة الأوربية وماتلاها من حرب ثقافية على اللغة العربية ظهور دعوات فاسدة نشير إليها فيما يلي :

أولاً : الدعوة إلى استعمال الحروف اللاتينية في الكتابة العربية وهي تنطوي على اغفال مقصود أو جهل لخصائص اللغة العربية في تكوين الكلمة وبنائها ونبوها عن الطريقة اللاتينية في رسم الكلمات وكتابتها .

ثانياً : الدعوة إلى العامية وهي بطبيعة الحال دعوة إلى الاقليمية فليس ثمة عامية واحدة بل لهجات أو لُغِيَّات ، وقبول العامية يؤدي إلى انطلاق هذه اللهجات في طرق مختلفة في تطورها وتنتهي بها إلى ما انتهت إليه اللاتينية في فرنسا وإيطاليا وإسبانيا .

ثالثاً : الدعوة إلى اغراق العربية في سيل من الألفاظ الأعجمية دون قيد أو شرط ، سواء أكننا نستطيع أن نجد لها لفظاً يقابلها جديداً أو قديماً أم لم نستطع ودون أن نراعي أوزان العربية وحروفها وأصواتها . إن هذه الدعوة تشبه الدعوة إلى فتح الأبواب مُشرعة أمام البضاعة الأجنبية دون قيد بحجة رفع مستوى الحياة الاجتماعية وهي دعوة تخفي وراءها طبعاً قتل الصناعة الوطنية والقضاء على الاقتصاد القومي . إنها شعوبية جديدة في الميدان اللغوي .

( ١٤ ) انظر ( خصائص العربية ومنهجها الأصيل في التجديد والتوليد ) .

كان من آثار هذه الدعوات ظهور نزعة محافظة اتصفت بكثير من التزمّت والتشدد ولكنها قامت بوظيفة الدفاع عن اللغة الموروثة فصّدت عنها عبث العابثين وعدوان المعتدين، ولكنها لم تميّز بين الأصل الثابت من عناصرها وبين العارض المتبدل منها. فاستنكرت كلمات فصيحة أصبحت اليوم شائعة رغم معارضتها اذكر منها مثلاً: النقد والاكتشاف والفنان والمجهر. رُفض هذا المصطلح الأخير لأنه صيغ على وزن اسم الآلة، واسم الآلة بزعمهم سماعي لا يجوز القياس على وزنه فيجب أن نستعمل (الجاهرة) بدلاً منه. وهذا مما دعا (مجمع اللغة العربية بالقاهرة) إلى اصدار قرار بقياسية اسم الآلة.

يقول أستاذنا المبارك: (لقد انتهى الأمر بالوعي اللغوي إلى ما انتهى إليه الوعي الذاتي في سائر ميادين الحياة: تحرّر من الانحطاط ورواسبه، تحرّر من العُجمة الجديدة والشعبوية الحديثة، استعادة للخصائص الأصيلة والصفات الذاتية واستشعار بها، اتصال بالماضي وتمثل لعناصره الأساسية الخالدة بعد احياء آثاره المهملّة المنسيّة، تقارب بين الفصحى والعاميّة بارتفاع العاميّة واقترابها من الفصحى ونزول الفصحى إلى ميادين الحياة واتصالها بها بعد ان اعتزلت كثيراً من ميادين الحياة قرناً طويلاً؛ ثمّ قدرة على التجديد والتوليد والبناء في ظروف الحياة الجديدة المتبدلة، ذلك هو الوعي اللغوي في المراحل التي قطعها والتي وصل إليها.

ثم يقول: (إن هذا الوعي اللغوي لا بدّ من انضاجه وتغذيته وتقويته ليشتد ويستحکم ويكمل، وليكون أوسع أفقاً وأشمل لعدد أكبر من الناس وليكون أرسخ وأعمق في النفوس) ما أحرانا اليوم بقبول هذه التوصيات وتنفيذها إلى أقصى مداها وأن لا نقنع بما حققناه من انتصارات إذ سقطت الدعوة إلى رسم لغتنا بحروف لاتينية وحلّ محلّها في نفوس الأوربيين اعجاب بالخط العربي وطاقته الفنيّة الخلاقة<sup>(١٥)</sup>، كما سقطت الدعوة إلى العاميّة واستعادت الفصحى

(١٥) انظر وصف الخط العربي في شعر أراغون (مجنون إلسا).

مكانتها وشهد لها مستشرق كبير قائلاً: إنها لغة الحريرة العليا ووحى الحب وان من حق العرب أن يعتزوا بهذه الآلة اللغوية الصافية والصالحة لنقل الفكر عبّر الدول<sup>(١٦)</sup> ولكن الحملات السابقة تركت في نفوس العرب كُلوماً لم تندمل بعد ولا يليق بهم الاستنامة إلى هذه الانتصارات بل ان الوعي اللغوي يدعوهم إلى مواجهة الواقع وادراك أن الحرب الثقافية لم تضع أوزارها ولكنها سلكت سُبُلًا أشد خفاءً وأتبع أساليب أكثر مكرراً فليواجهوها بروح واثقة، محررة من الشعور بالنقص، مؤمنة بالنصر النهائي .

فانظر إلى اللهجات العامية في البلاد العربية فقد بقيت دراستها وقفاً على المستشرقين لأن العربي يخشى تهمة الترويج للعامية مع انه لا ضير في هذه الدراسة إذا تولّاها عربي مؤمن بلغة القرآن<sup>(١٧)</sup>، بل انها تؤدي إلى تقارب العاميات وتعايقها في حضان أمها الفصحى حيث ترتضع الفصاحة من لبانها مما يعود على الأمة العربية بالخير العميم . وانظر إلى مشكلة تعريب التدريس الجامعي وما يعقد من مؤتمرات في سبيلها تكون مسرحاً يتبارى فيه العلماء واللغويون في تقديم دراسات تختلف عمقاً وسعة في قدرة العربية على الوفاء بما تتطلبه لغة العلوم . ثم ينتهي كل مؤتمر إلى اصدار توصيات كأنها طمانة المريض حتى يأذن الله له بالشفاء لا إلى استصدار قرارات باتخاذ العربية لغة تدريس العلوم .

وانظر إلى طرائق التوليد اللغوي من اشتقاق وتعريب ونحت وكيف استخدم بعضهم النحت<sup>(١٨)</sup> بغير قيود وحسبوا ان فيه حلاً لمشكلة التوليد اللغوي في العربية وغاب عنهم ما تمتاز اللغة العربية به من أصالة بينما لا يرى العرب بأساً في قبول اللفظ الأعجمي في لغتهم بعد تغيير في حروفه أو حركاته يجعله مجانساً لالفاظهم فهل للعرب أن يتفوقوا على استراتيجية تحمي اللغة العربية وتصدّ عنها كيد الكائدين وشتان بين استراتيجية تجاري اللغة في تقلباتها الحية

(١٦) لويس ماسينيون في مقدمته لكتاب المعجزة العربية للمستشرق ماكس فانناجو .

(١٧) انظر مقالات الأستاذ شفيق جبري بعنوان (بقايا الفصح) .

(١٨) انظر مقال الأستاذ المهندس وجيه سمان (النحت) في مجلة مجمع اللغة العربية مجلد: ٥٧ .

وترصد ما يعترضها من عقبات في المجال الاجتماعي وبين خطة جامدة تعامل اللغة معاملة ميكانيكية بعيدة عن حياة الأمة. وإذا صح ان العرب أمة واحدة فيجب ان يواجهوا مشكلة اللغة مواجهة وحدوية مؤتلفة، لا مواجهة فطرية مشتتة وان يبادروا إلى اقالة لغتهم من عثرتها، وإلا فإن المنظمات الدولية التي تعمل في مجال المصطلحات سوف تثبت الأوضاع اللغوية السقيمة وتضع أصحاب اللغة أمام أمر واقع لا يحصى لهم عن قبوله.

وهل يجوز التخاذل أمام التحديات الهائلة التي تواجهنا بها المسيرة الحضارية المتسارعة التي تجاوزت المرحلة التقنية إلى المرحلة الاعلامية والتي ظهر فيها (العلم المعرفي) الذي أفاد من علم اللغة كثيراً وهو حرّي أن يعود على دراسة اللغة العربية بالخير العميم.

## ٢ — القومية العربية

يقول المبارك: (لقد مضى الزمن الذي كان فيه أكثرنا يفهم الاستقلال فهما مادياً ضيقاً ويقصره على الأرض ويقنع بان تسلم له يتصرف بها، أو ليس لنا مع أرضنا ملك آخر هو تراثنا المعنوي واستقلالنا الفكري وحرّيتنا في طريقة البناء في هذه الأرض؟).

ويقول:

(إن الانسانية كلها في أزمة فقد رقى الانسان الوسائل ولم يسمُ بالأهداف والغايات. تحسنت وسائل العيش وتردى الضمير الانساني، وغدا الانسان عبداً للآلة التي صنعها بيده، وطغت الأهداف المادية على البشرية جمعاء، وطبعت الحضارة الحديثة بطابعها، وهي على اختلاف أمثالها لا تعرف إلا باسم مادي فهدفها — سواء كانت رأسمالية أو مادية — المادة وحدها.

فهل نستطيع بما عندنا من تراث أن نساهم في حلّ معضلة الانسانية؟).



ثم يقول (١٩) :

(لنسرّح الطرف عبر القرون ولنبحث عن العناصر الانسانية والقيم الخالدة من تراثنا . ان الايمان بالقيم الخلقية والمعاني المثالية في الحياة هو أول خطأ من خطوط هذا التراث . فقد عرف العربي منذ الجاهلية بالإباء والمروءة ، والعفة عن الأعراض ، والكرم وحماية الجار والحليف ، والإيثار ومشاركة الناس . ومن أجمل ما قيل في هذا الموضوع قولُ عروة بن الورد (٢٠) :

اتهزأ مني أن سمنتَ وإن ترى      بجسمي مسّ الجوع والجوع جاهد  
فاني امرؤ عافي انائي شركة      وانت امرؤ عافي انائك واحد  
اقسم جسمي في جسوم كثيرة      واحسو قراح الماء والماء بارد  
وبالجملة فان العربي كان متجهاً اتجاهاً مثالياً ولو اخطأ الهدف وضلّ  
السبيل فاسرف وبالغ ووضع الأمور في غير نصابها وبذلك استحق ان يوصف  
بالجهل (٢١) الذي هو ضدّ الحلم والحكمة . زد على ذلك ان الاتجاه المثالي كان  
في اطار القبيلة وفي نطاق الصحراء ولما ظهرت رسالة الاسلام واستجاب لها  
العرب ، تجاوب الاستعداد المثالي العربي مع مثاليها فأصبحت التضحية بالنفس  
في سبيل احقاق الحق وتحقيق العدالة وأصبح الكرم ملاً يجيب ويوزع بالعدل  
ويحسب الجهة والحاجة وغدا الإباء غضباً للحق وثورة على الظلم . وعاد التضامن  
مع القبيلة تضامناً مع المجتمع كله والعصبية للقبيلة عصبية للحق . لقد نقل  
الاسلام مثاليّة العرب من صعيد الصحراء إلى صعيد البشرية ، ومن إطار القبيلة  
إلى اطار الانسانية ومن الاتجاه غير المحدد الهدف إلى مثالية منظمة رائعة .  
فتحققت معجزة أراد الله أن يكون العرب أدواتها والمنفذين لها .

٣ - الاسلام (٢٢)

كان بين العرب كقومية وأمة والاسلام كصورة للمثل الأعلى ، تلازم

(١٩) الأمة العربية في معركة تحقيق الذات ص ١١٣ .

(٢٠) المرجع السابق ص ١١٨ .

(٢١) يقال : إن الذي تبه إلى معنى الجهل هذا هو الأستاذ المرحوم سليم الجندي .

(٢٢) المرجع السابق ص ١٣٠ .

طويل تمثّل في تاريخ حافل وفي حضارات أبنعت وأثمرت ونالت الانسانية منها أطيب الثمرات . ولكن كان كل مسلم يعتبر الاسلام دينه الذي يدين به في هذه الحياة ، فإن كل عربي مهما كان دينه ينظر إلى الاسلام على انه تراثه القومي وتاريخه الضخم وإن الغرب وحده — والذين تأثروا به في ارائهم — هو المسؤول عن سوء فهمه للمسيحية والاسلام وقصوره وعجزه عن إدراك معانيهما السامية وكَم سعى المستشرقون العاملون في خدمة الاستعمار الأوربي في اثارة العصبية الطائفية ، والقرآن الكريم يقول :

﴿ لا اكراه في الدين ، قد تبيّن الرشد من الغي ﴾ (٢٣)

﴿ ولتجدنّ اقربهم مودةً للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ، ذلك بأنّ منهم قسيسين ورهباناً وانهم لا يستكبرون ﴾ (٢٤) ، فالاسلام (٢٥) — بغضّ النظر عن كونه دين القسم الأكبر من الشعب العربي — هو تراث الأمة العربية القومي ، من روحه واتجاهاته العامة تستمدّ مثلها ومبادئ تشريعها . فمن يستطيع أن يتهم الشاعر القروي بالتعصب الطائفي للاسلام حين يقول :

عش للعروبة هاتفاً	بجياتها ودوامها
وامدد يمين الحبّ يا	لبنانها لشأمها
انظر إلى آثارها	تنبيك عن أيامها
هذا التراث يمتّ مع	ظمه إلى إسلامها

ويقول :

أنا العروبة لي في كل مملكة	انجيل حبّ ولي قرآن إنعام
سلّ عهد شامي وبغدادى واندلسي	عن عمق فلسفتي ، عن عدل احكامي
شغلت قلبي بحب المصطفى وغدت	عروتي مثل الأعلى واسلامي

(٢٣) البقرة: ٢٥٦ .

(٢٤) المائدة: ٨٢ .

(٢٥) المرجع السابق ص ٨٢ .

وشامتِ بي مسرور بحزني مس تشفي بدائي، ملتذِ بالأمي  
قولوا له عربٌ تقضوا عليه فان يسلم فثنوا بقرآنٍ واسلام  
أو ليس ينهل كاتب عربي كاللكتور أديب نصور من ينبوع الدينين حين  
يقول:

مشكلتنا أعمق بكثير من السياسة والاقتصاد، هي مشكلة أمة فقدت  
مُثلاً قديمة كانت القوى الفعالة في حياتها ولم تجد مثلاً أخرى تتفق عليها، واني  
اعتقد ان العمل الجديد يجب أن يكون اخلاقياً روحياً قبل كل شيء.  
ويحتم كلامه هذا بقوله:

إن دعوتي ليست أقل ولا أكثر من العودة إلى الله، والله المثل الأعلى كما  
جاء في القرآن الكريم ﴿وله المثل الأعلى في السموات والأرض﴾ (٢٦).  
والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.